معامل التأثير العربي 2.17 لسنة 2024
العدد 26 يناير 2025

مجلة التربوي
Journal of Educational
ISSN: 2011- 421X
Arcif Q3

تدبّر وبيان في لفظة اقرأ في القرآن

علي عبد الرحمن إبراهيم الفيتوري
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة مصراتة
al.alfitori@art.misuratau.edu.ly

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (195)﴾ [1]

لا يخفى ما في هذه الآيات من بيان وتبيان، لطمأنة نفس المتلقّي لهذا الأمر العظيم (الوحي) فالمُرسل هو ربُّ العالمين، والمؤتمَن على إيصال هذه الرسالة، هو الرّوح الأمين، والمعنِيُّ بحرف الخطاب؛ هو محمد صلى الله عليه وسلّم، والغاية من ذلك، التبليغ والإنذار، والوصف، أنّه بلسان عربيٍّ مبين.

ولا يقف هذا التبليغ عند حدود البشر، بل يتجاوزهم إلى غيرهم من الخلق، فقد قالت الجنُّ ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا (1) يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا(2)﴾ [2].

وهذا البيان المنزّل ((تتعدد طرائق أسلوبه، وتتميّز لغته وصوره ويختصّ بنمط في التعبير، لا يُعرف في سواه)) [3].

وقد كان العرب إبّان ذلك الحدث العظيم، مهيئين لذلك فقد بلغوا في فنون القول أوجًا بعيدًا، وعركتهم الحياة فهذّبت الملكات، وطوّعت الطباع والجبلّات، فهم ((أسرع الناس قبولًا للحق والهدى، لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق... وهم لا يزالون موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في النطق، والذلاقة في اللسان، والبيان، سِمَتُهم بين الأمم منذُ كانوا)) [4] وقد قيل عن العرب في أواخر العصر الجاهلي، أنهم كانوا ((على أبواب يقظة عقلية وروحية، وكانوا في ريعان نهضة أدبية هزّت أركان الوثنية هزّات كادت تقوضها)) [5].

وحيث إننا ممّن حباهم الله باتّباع هذا الهُدى – هدى الله – ويسّر لنا شيئًا من علوم العربية، الأمر الذي جعلنا نُعنى بمثل هذا، ولكنّ العقل يقف عاجزًا أمام استنطاق هذا البيان واستجلاء صورة – في كثير من الأحيان – وممّا استوقفني طويلًا، هذه الكلمة التي تصدّرت الخطاب الإلهي ﴿إِقۡرَأۡ﴾ [6]والعظيم، لا يُفتتح إلّا بعظيم، والافتتاح جاء بصيغة الأمر، والمأمور، هو أحرص الخلق على الامتثال والاستجابة.

فما المطلوب قراءته؟ وهل هذا الأمر خاص بالرسول صلى الله عليه وسلّم؟ أم هو أمر عام لجميع المخاطبين بهذه الرسالة؟ وهل عكف محمد – صلى الله عليه وسلم – على تعلّم القراءة والكتابة؟

كلّ هذا وغيره ألزمني تسطير هذه الكلمات، لعلّي أحظى بتوفيق الله فيها، فتزيل القشرة عن اللباب، وأنال مكرمة التدبّر في هذا الكتاب .... والمطية في هذا الدرب، هي كل ما من شأنه الاستعانة به من المناهج، وما عرفنا من أساليب العرب في لغتهم، ((وهذا القرآن لا يمنح كنوزه وأسراره إلّا لمن أقبل عليه بعقل مفتوح، وقلب صافٍ، وأذن واعية، وقصد صادق لفهمه وإدراك أسراره)) [7] ومن أهم أسباب بلوغ تلك الكنوز، هو اليقين التام، بأنه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (41) ﴾[8]

وأجد نفسي – فيما اطلعت عليه – قريبًا من هذه الوجهة التي تقول إنّ ((بحوث القدماء على استفاضتها ودقّتها وحسن عرضها، قد تجاهلت أمرًا هامًا، هو في الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة، ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه)) [9].

وقد تنبّه ابن عباس – رضي الله عنهما – إلى أن اللغة تتداخل وتتلبّك على المتلمسين لمعانيها، فعندها يرشدهم إلى اللجوء إلى أشعار العرب فقال: ((إذا أعيتكم العربية في القرآن، فالتمسوها في الشعر، فإنه ديوان العرب)) [10].

وعند تتبّع لفظة ((اقرأ)) في أشعار العرب نجدها في بيت من أبيات معلّقة عمرو بن كلثوم بصيغة المضارع وذلك في قوله:

ذِراعيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ ***** هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[11]

أي لم تضم في رحمها ولدًا، وذكر هذا مبالغة في سمنها. [12]

---

[1] سورة الشعراء، الآيات 192-195.
[2] سورة الجن، من الآية 1 والآية 2.
[3] الدراسات الأدبية النظرية والتطبيق ((نصوص قرآنية)) عبدالسلام أحمد الراغب، دار القلم العربي، سوريا، ط 1، 2005، ص 10.
[4] مقدمة ابن خلدون، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ط2، 1997، ص 140-141.
[5] الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي، نهضة مصر القاهرة (بدون ط ت) ص 377.
[6] سورة العلق، من الآية 1.
[7] الدارسات الأدبية، النظرية والتطبيق ((نصوص قرآنية)) ص 17.
[8] سورة فصّلت، الآية 41.
[9] دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1980، ص 128.
[10] زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق محمد حجي، د. محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1980، ج 1، ص 46.
- وينظر العمدة، ابن رشيق القيرواني تحقيق محي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 30.
(11) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، عُني بجمعه وتصحيحه، الشيخ أحمد الشنقيطي، دار الأندلس – بيروت لبنان، ص 139.
[12] شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار ابن حزم بيروت، لبنان، 2005، ص 162.

ومن الواضح أن لفظة ((تقرأ) في هذا البيت لا تتصل بمدلول القراءة والكتابة بأي قراءة أو شرح أو تفسير أو تأويل، وهي أقرب للحمل، والجمع، والتزوّد، والإحاطة.

وقال أبو القمقام الأسدي:

اقْرَأْ على الوَشَلِ السَّلاَمَ وقُل له ***** كُلُّ المشَارِبِ مُذْ هُجِرتَ ذَمِيمُ[1]

وأصل الوشل الماء القليل[2]، وهذا النوع يُعدّ من أبرز الوسائل الفنية التي يستعملها الشاعر لبناء صوره الفنية، حيث يجعل من مظاهر البيئة الطبيعية الجامدة والصامتة، كائنات حيّة تنبض بالحياة، تعي وتسمع ما يقال.

ففي البيت أيضًا، تكون لفظة ((اقرأ) بعيدة عن مدلول القراءة والكتابة، وهي لمدلول التبليغ أقرب من أي شيءٍ غيره.

- وما قول جرير من السّابق ببعيد، إذ يقول:

اقرأ السّلام على سعادَ وقل لها ***** يومًا تردّ رسولنا بسلامِ[3]

فلا شيء يُقرّب فعل الأمر الذي بدأ به هذا البيت، من مدلول القراءة والكتابة.

وهذا يُحتّم النظر في معاجم اللغة العربية، لاستقصاء مدلول لفظة ((اقرأ)) وتبيّن ما تعنيه، وقد جاءت في لسان العرب على معانٍ متعددة منها، بمعنى جمع الشيء وضمّ بعضه إلى بعض[4].

وجاءت بمعنى الاستعلاء ((قرأ واقترأ، بمعنى، بمنزلة عَلا قِرْنَه واستعلاه)) [5]

واستقرأه، بمعنى طلب إليه أن يقرأ[6]. ((والقارئُ والمتقَرْئُ والقُرّاءُ كُلّه: الناسك)) [7] وجاءت بمعنى التفقّه((تقرّأ: تفقّه، تَقَرّأ: تنسّك، ويقال: قَرَأتُ أي صِرتُ قارئًا ناسكًا)) [8]. ويقال ((اقْرَأ عليه السلام واقرِئه الكتاب، ولا تقل أقرئه السلام إلا في لغة سوء، إلّا إذا كان مكتوبًا فتقول ذلك أي أجعله يقرؤه)) [9] وجاءت بصيغة الماضي، قَرَأ عليه السلام: أبلغه، كأقرأه إياه. [10]

ومن معاني قرأ: طَالَع، تصفّحَ، اقْتَرَأ، تعلّم. [11]

ومن معانيها أيضًا، أفاد، نفع، أَجْدَى. [12]

والقراءة: تحريك النظر على رموز الكتابة منطوقة بصوت عالٍ أو من غير صوت، مع إدراك العقل للمعاني التي ترمز إليها في الحالتين، وتعني القراءة أيضًا، طريقة خاصة لتأويل ما يقرأه المرء لنصّ فهمه غيره فهمًا مختلفًا [13]، ومن هذا قراءة الغلاف والعنوان، وهو مما يُعرف بالعتبات النصّية، وكذلك دراسة نظام الإشارات والعلامات والدلالات والرموز، ويدخل في ذلك قراءة المشهد، واللوحة، المُحيّا، والصورة،...

ولعلّ إعمال العقل في هذا الكمّ الواسع لدلالة ((اقرأ)) يجعل الناظر في حيرة، وهو يحاول اختيار المَعْنِي بها، ولكنّه بالنظرة الأشمل، يجدها كلّها داخلة في هذا الأمر، فالتبليغ والحمل والجمع والضمّ والعلوّ والتنسّك والتفقيه والنفع والإفادة، .. كلّها تأتي للتهيؤ لهذا العبء الثقيل، وأهم ما يُعين على ذلك استحضار عظمة صاحب الأمر ((اقرأ)) التي تتجلّى، بقراءة آيات الله المبثوثة في هذا الكون، واكتشاف أسرارها، واستنطاق رموزها، واستجلاء أسرارها وقوانينها، وبذلك تطمئنّ النفس، وتركن إلى خالقها، مؤمنة طائعة صابرة محتسبة، وهذا من أبرز ما دعا الله إليه في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(19)﴾ [14] أي ((ابحثوا وانظروا هل تجدون خالقًا غير الله، فإذا علموا أنّه لا خالق ابتداءً إلّا الله، لزمتهم الحُجّة في الإعادة)) [15] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(163)﴾ [16]

وهذا كلّه يتطلّب نظرًا فاحصًا، وقراءة عميقة، في هذه الآيات الكونية، فَأَمْرُ النظرِ فيها، يفتح للعقل التأمّل وفكّ رموزها والوصول إلى القراءة التي تتجلّى بها الخفايا، وتستنير بها العقول.

---

[1] شرح ديوان الحماسة، يحيى التبريزي، دار القلم بيروت ج 2 ص 145.
[2] المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] الموشّى، الظرف والظرفاء، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب المعروف بالوشاء (المتوفى: 325 هـ) تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي مصر، مطبعة الاعتماد، ط2، 1953م، ص 188.
[4] لسان العرب ابن منظور، دار صادر بيروت، ط 3، 1944، (ق ر أ).
[5] السابق.
[6] السابق.
[7] السابق.
[8] السابق
[9] مشارق الأنوار، القاضي عياض المكتبة العتيقة ودار التراث، (بدون ط ت) (ق ر أ).
[10] تاج العروس، الزبيدي، دار الهداية (بدون ت ط) (ق ر أ).
[11] معجم المترادفات والأضداد، إعداد سعد الضناوي، جوزيف مالك، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2007، ص 538.
[12] السابق.
[13] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان، ط 2، ص 287.
[14] سورة العنكبوت الآية 19.
[15] الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي النيسبوري، تحقيق وتعليق الشيخ عادل عبدالموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت (بدون ت ط)ج 3، ص 416.
[16] سورة البقرة الآية 163.

وقد تكرر الأمر بالنظر في آيات الله الكونية، في مواضع متعددة، ليتعرّف الإنسان على عظمة من بيده ملكوت السماوات والأرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ(24) إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (30) وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا (31) مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ (32) ۞فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (35) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(37)﴾ [1]

وكلّما عاودنا النظر في هذه الآيات وتعمقنا في قراءتها، كلّما فاضت بالعطاء، وأمعنت في إيقاظ العقل والاستلاء على الوجدان، فهذا العمل اليومي المتكرر، المتمثّل في طعام الإنسان، الذي يتناوله غافلًا عن مسيرته الطويلة، التي تبدأ بخلق الأرض وإنزال الغيث، حتى تصير لقمة سائغة تُلقى في جوف الإنسان، وهذه الإشارة إلى المأكول الذي لا يُجنى من نبات الأرض مباشرة فهو أيضًا قد نبت من نبات الأرض أصلًا، جاء ذلك في إظهار متعة الأنعام بما تنبت الأرض، وفي هذا إيحاء إلى أثر الماء في تلك الحياة البدوية والبهجة التي تعمّ الجميع بنزول الغيث، فهذه الثنائية بين العاقل وغير العاقل تحتّم على العاقل التدبّر والشكر والثناء، وإلّا فهو كالأخرى التي تكتفي بالأكل والتكاثر والفناء، ثم الوصول إلى الثنائية الأهم، وهي البهجة بنعيم الدنيا، والهول العظيم بمجيء الصّاخّة، التي لا يُنجي من هولها إلّا الملاذ بمن تفضّل على خلقه بنعمه وبيانه، وكرمه وإحسانه.

وهنا استوجب الوقوف على ذاك الأمر ((اقرأ)) الذي هو لُباب هذا العمل وكذلك الوقوف على الآيات التي صاحبته في الدلالة والنزول وهي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (1) خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ (2) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (3) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (4) عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5)﴾ [2] وأكثر المفسرين على أن هذه الآيات هي أوّل ما نز ل من القرآن[3]. فسورة ((اقرأ أوّل ما نزل من القرآن حين بُدِئَ بالوحي، وسورة المدّثر أوّل ما نزل بعد فتور الوحي والله أعلم)) [4]

وفتور الوحي بعد الأمر الأول له ما يسوغه، لما فيه من رهبة وشمول، ففي فعل الأمر ((اقرأ) فيض من المعاني التي تغمر المأمور، والتي سبق ذكرها، وفي هذا الأمر، نهي مستنبط، فمن أحسن قراءة آيات هذا الكون، واستقرّت في قلبه عظمة الخالق، فهو بالضرورة سيكون ممتثلًا لما أُمِر به، منتهيًا عمّا نُهي عنه.

ولو كان المأمور به في قوله ((اقرأ) هو تعلّم القراءة التي تعني تتبع الحروف المكتوبة بالنظر أو اللّمس، واستشعارها أو النطق بها، لما كان في الخلق أحرص من محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه على طاعة هذا الأمر، والعمل به، ولا نظنّ أن يبقى صحابيّ واحدٌ لا يجيد القراءة والكتابة، وبخاصة أن من العرب من كان على إلمام بالقراءة والكتابة – في ذلك الزمن – ومنهم لقيط ابن يعمر الأيادي الذي كان كاتبًا بالعربية مترجمًا في بلاط فارس، وهو الذي أرسل إلى قومه يُنذرهم بعزم كسرى على قتالهم، وصحيفته المرسَلة في ذلك، مشهورة [5]، وقال في مطلع أبياتها:

سلامٌ في الصحيفة من لقيط ***** إلى من بالجزيرة من إياد [6]

وممّن تميزوا في القراءة والكتابة ((عدي بن زيد العبادي؛ الذي طرحه أبوه – حين أيفع – في الكُتّاب، حتى إذا حذق الخط العربي أرسله إلى كُتّاب الفارسية، فصار أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية)) [7].

الأمر الآخر الذي يؤكّد استبعاد الأمر بالقراءة في الكتب والكتابة بالأقلام، هو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [8] فكيف يُؤمَر بالقراءة، وهو الموصوف بالأمّيّة ومعروف بها في قومه وفي غيرهم من أهل الديانات الأخرى؟ و((يعني بالأمّيّ الذي لا يقرأ الكتب ولا يخطّها بيمينه)). [9]

والأمر الذي يتمّ به استبعاد الأمر بالقراءة والكتابة، كونها وسيلة لبلوغ غاية التعلّم، وهو صلى الله عليه وسلّم قد بلغَ في هذا ما يغنيه عن طلب ذلك، فقد أعطاه الله ما لم يُحِط به بشر ((وكونه أمّيًّا شرفٌ له، إذ الكتابة وسيلة للعلوم وقد أُعطي منها ما لم يُعطَ أحدٌ من العالمين من غير تعبٍ تعلُّمها)) [10] والأُمية وصف خاص بمحمد – صلى الله عليه وسلّم – لا يُشاركه فيه غيره من النبيّين، وهي آية من آيات نبوته [11]. فلا يمكن أن يُظنّ مع هذه الآية، أنّه مأمور بالقراءة والكتابة.

ويجد النّاظر في هذه الآيات، التي تصدّرت الوحي، أنّ الأمر بالقراءة، متصلًا باسم ربّك الذي خلق.

وفيما أظنّ أنّ كلّ من عرف شيئًا من البيان، وكان له بلُغةِ العرب اتصال، لا سيّما القديمَ منها، سيجد نفسه أمام هالةٍ من عجائب البيان، التي تُذهلُ العقولَ وتأسرُ القلوب،

فكلمة ((اقرأ)) بداية القرآن الكريم وطليعته، فلا تحتمل الصياغة أن تأتي على (باسم ربّك اقرأ) لأن للصدارة أهمية يُدركها العرب فقوة الافتتاح تنتفض لها القلوب، وتستحضر عظمة المطلوب، وممّا يزيدها وجلًا، أن الأمر يستوجب الاستعانة، والتوكّل، والاعتماد، والاستحضار للشيء المهم، وهو اسمه تعالى، والاسم هنا جاء مطلقًا غير محدد، فتدخل الأسماء الحسنى جميعها، ونجد فيما يُشبه هذه الصياغة، التحديد، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(99)﴾ [12] فالاسم هنا محدد بالعظيم.

---

[1] سورة عبس الآيات 24-37.
[2] سورة العلق، الآيات 1-5.
[3] الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره – أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي، جامعة الشارقة، ط 1، 2008، ج 1، ص 79.
[4] تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق ياسر إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض السعودية، ط 1، 1997، ج 6، ص 87.
[5] مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسدي، دار المعارف بمصر، ط 7، 1987، ص 114.
[6] الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الآفاق بيروت (بدون ت ط)، ج 1، ص 152.
[7] مصادر الشعر الجاهلي، ص 114.
[8] الأعراف من الآية 157.
[9] تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط 1، 1423 هـ، ج2 ، ص 67.
[10] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العبّاس الفاسي، تحقيق: أحمد عبدالله القُرشي، الناشر د. حسن عباس زكي، القاهرة (بدون ط) 1419 هـ، ج 2، ص 267.
[11] تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1946، ص 81.
[12] سورة الواقعة الآية 99، وسورة الحاقة الآية 52.

وهذا الاطلاق وجدناه في الأمر المُفتَتَح به، في حين نجد في غيره التقييد، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾(14) [1] فالمطلوب قراءته يوم القيامة، هو الكتاب ولا شيء غيره، وملامح الشفقة والرأفة تلوح في تراكيب آيات الافتتاح فالذي تستعين به وتركن إليه، هو الذي ربّاك بنِعَمِهِ، وهو ربّك، ولا يخفى ما في هذه الإضافة ((ربّك)) من تكريم ورِفعةٍ وطَمْأنَةٍ وإطراء للمضاف إليه. كما لا يخفى ما في هذا التكرار – في هذه الآيات الخمس – من دلالة تحسن في سياقها، والألفاظ التي تكرّر ذكرها في هذه الآيات، اقرأ، ربّك، خلق، الذي، الإنسان، علّم، ((والتكرار لم يكن في الأصل إلّا وسيلة لإعطاء العبارة زيادة في القوّة)) [2]

وإذا كان في التكرار قوة وتأكيد وتكريم وأهمية وتعظيم، فإننا نجد العظمة والتكريم أيضًا فيما لم يتكرر ذكره، من زاوية أخرى، فالأكرم، صيغة تفضيل، وهو أكرم الأكرمين، والألفاظ القرآنية محكمة إحكامًا لا يقدِر عليه إلّا الواحد الأحد، فكلمة ((الأكرم)) متفرّدة في كتاب الله، تفرّد الله في عِظم كرمِه، وهي تستحق أن تكون في هذه الصدارة، التي تُخبر محمد – صلى الله عليه وسلّم– أنّ الأكرم قد أكرمك بهذا الشرف العظيم، الذي يجعلك أكرم الخلقِ أجمعين.

وحيث إنّ المقام مقام تكريم فلا بدّ أن نجد في هذه الآيات لفظة ((علق)) دون غيرها ممّا ذُكر في مواضع أخرى لبيان نشأة الإنسان فقد قال تعالى في غير هذا الموضع ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[3]

وقال في موضع آخر ﴿۞أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (76) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَنْ يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (77) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(78)﴾ [4]

وفي مجال التكريم هذا، لم نجدة لفظة ((نطفة)) ولم نجد أيضًا لفظة ((علقة)) بل وجدنا لفظة ((علق))

أمّا النطفة فقد جاءت في السياق الذي ترفّع فيه الإنسان، إلى أن ضرب مثلًا يحاجج به الله، فاستحق التوجيه إلى إعادة النظر في نشأته المبتدئة بالنطفة، وذلك لقلّة شأنها ووضاعتها، والعلقة تعلو منزلتها علوّ النبتة على البذرة، وفيها إيحاء لما حباها الله من الرعاية والحفظ بعد الإخصاب وما تحتاجه من رعاية وحفظ واهتمام وتنمية، وفي هذا إيحاء وتناغم مع ما تحتاجه هذه الرسالة المبتدئة بقوله ((اقرأ)) هذه التي ستصير الرسالة الخاتمة، برعاية الله وتوفيقه، ثم ببذل رسوله – صلى الله عليه وسلّم – ومن تبعه.

وبدا لي من وجودها على لفظة ((علق)) إيحاء بتحوّلها في أطوار النشأة إلى الإنسان، الذي تحمّل الأمانة دون غيره بوجود العقل، وهي أيضًا تتحوّل إلى ((عقل)) عند تقلّب حروفها من غير تغيير في جذرها، والعقل هو أساس التكليف، وهو المخاطب بقوله اقرأ.

أمّا القلم، فقد حباه الله بالإكرام والتشريف أيضًا، واختصّه بالرّفعة، فلا يُقارن بغيره من الأعواد التي لم تختصّ بما أُختصّ به، فبه التوثيق والإنذار والتعليم والتعلّم، وهو أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وكأنه إيحاء إلى النبي المصطفى بهذه الخاصية والميزة التي اختصه الله بها، فسما على غيره من الخلق وعلا ...، وقد يتراءى هذا من القول البعيد، وبخاصة على من كان بعيدًا عن أساليب العرب وما تحمله لغتهم من إيحاءات، هي أقوى في دلالتها من الألفاظ المنطوقة في كثير من الأحيان، ولعلّ في المقدمة الطللية التي ذكرها النابغة الذبياني في معلقته المشهورة والتي مطلعها:

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند ***** أقوت وطالَ عليها سالف الأبد[5]

وهو يخاطب بها ملك العرب النعمان بن المنذر، ما يبين عن شيءٍ من هذه الإيحاءات المحكمة فما كانت الأواري كما هي في الظاهر، الحبال، ولم يكن المقصود بالنُؤي، ذاك الحوض المضروب حول الخيمة، ولم يكن الأتيُّ، النهر الصغير[6]...

وإذا كانت البداية في هذا بقوله تعالى ﴿إِقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ(1)﴾[7] فإننا نجد الصياغة ذاتها مع الاختلاف في الفعل، فبعد البداية بالأمر ((اقرأ)) يأتي الأمر بالتسبيح وذلك عند جحود الجاحدين في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [8]

وجاء الأمر بالتسبيح ((وهو تنزيه الله جلّ ثناؤه من كل سوء)) [9] بعد ذكر المكذبين وأقوالهم وذلك في سورة الواقعة ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (95) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (96) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (97) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (98) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(99)﴾ [10]

وجاء في سورة الحاقة، في السياق نفسه ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ (50) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(52)﴾ . [11]

وجاء هذا الأمر بالتسبيح خاتمةً في كلا السورتين، ونلحظ أنَّ الأمر الأوّل في القرآن، لم يحدّد اسمه تعالى، ولكنّه في الأمر بالتنزيه جاء اسم "العظيم"، الذي يستوجب التنزيه عن كل ما ينافي عظمته، فلا مجال هُنا للأسماء الأخرى، كالرحيم والكريم والحكيم، ومن تمام الإحكام أن يأتي اسم العظيم في هذا السياق.

وبهذا ندرك أنّ كل حرف في كتاب الله تعالى، هو محلُّ تدبّر ونظر، ليس كما يُنظر إلى غيره من الحروف، وأنّ كثيرًا من الدلالات تتحوّل معانيها بحسب اهتمام مستعمليها، وأنّ كثيرًا من الدلالات تتداخل حتى تكاد تطمس بعضها بعضًا، ويترتب على هذا الطمس شرّاً مستطيرًا، عندما تصرف العقول إلى معانٍ لا تستقيم في سياقها، وكثير من المفاهيم (تتولّد بالظنّ وتتراكم بالوهم، وتستحكم بالتواتر). [12]

---

[1] سورة الإسراء الآية 14.
[2] اللغة، الكتاب، جوزيف فندريس، تعريب عبدالحميد الدواخلي، محمد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1950، ج 1، ص 200.
[3] سورة غافر من الآية 67.
[4] سورة يس الآيات 76-78.
[5] شرح المعلقات العشر، الشنقيطي، ص 202.
[6] الرغبة والرهبة في الشعر الجاهلي معجمًا ودراسة، د. علي عبدالرحمن الفيتوري، أطروحة دكتوراة، جامعة محمد الخامس المغرب، نوقشت 2010، ((مخطوط))، ج 2، ص 643 وما بعدها.
[7] سورة العلق من الآية 1.
[8] سورة الواقعة الآية 99 وسورة الحاقة الآية 52.
[9] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر بدون ط، 1979 (س ب ح)
[10] سورة الواقعة من الآية 95-99.
[11] سورة الحاقة الآيات 49-52.
[12] الأدب وخطاب النقد، د. عبدالسلام المسدي، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ط 1، 2004، ص 139.

خاتمة

1. يؤكّد البحث أن فيض العطاء القرآني وإعجازه لا يتوقّف، وهو لا ينحصر في زمان أو مكان.
2. إنّ أمر الله بالتدبّر في آياته مستمرّ إلى قيام الساعة، وما كان الأمر بذلك إلّا لتتجلّى نفائسه، جيلًا بعد جيل.
3. يؤكّد البحث أنّ التعمّق في معرفة أساليب العرب وأسرار لغتهم، هو من أهم السبل للاستعانة على التدبّر في كتاب الله تعالى.
4. أكّد البحث أنّ فعل الأمر ((اقرأ)) في سورة العلق، لم يكن طلبًا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بتعلّم القراءة والكتابة، ولو كان كذلك لكان محمد – صلى الله عليه وسلّم – أحرص الخلق – طاعة وامتثالًا – على الالتزام به وتحقيقه.
5. تبيّن من البحث أنّ مدلول لفظة ((اقرأ)) لا ينحصر في الأمر بالقراءة المعروفة في الصحف والكتب، بل يتعدّى ذلك، وذلك ثابت في أشعار العرب.
6. يؤكّد البحث أنّ الإحكام في ألفاظ القرآن وتراكيبه، يجعله حُجة على المخاطبين به، تعجز أمام عظمته قدرات المخلوقين.
7. يوجّه البحث إلى أنّ أقوال ا لسابقين محلّ تقدير وإكبار، مع إمكانية الزيادة عليها، أو تحسين وجهتها، أو دحضها، كل ذلك لا يتم إلّا بالدليل القاطع والبحث الصحيح.
8. ينبّه البحث إلى التأصيل الصحيح لمدلول الألفاظ، وعدم اجترار ما بُني أساسًا على الظنّ أو الوهم، وإنْ أخذ بعد ذلك صبغة اليقين لكثرة وروده على الألسن وتواتره.
9. يؤكّد البحث أنّ ما يعتري بعض العقول من لبس أو لبك وهي تنظر في كتاب الله تعالى، هو ناتج عن قصور تلك العقول، وبالتّالي ينبغي عدم الانغلاق على ما تضطرب به النفوس، واللجوء إلى أهل الدراية لإزالة ما يريبها، حتى لا تكون فريسة لأعداء هذا الدين.
10. خلُص البحث إلى أنّ الأُميّة وصف من أوصافه – صلّى الله عليه وسلّم – فهو الرسول النَّبيّ الأمّي، وهي شرف له، والقراءة والكتابة وسيلة من وسائل التعلّم، وقد أحاطه الله بالعلوم والمعارف، بما لم يُحط به من زالت عنهم هذه الصفة بالقراءة والكتابة، وبالتالي لا يستقيم – والأمر كذلك – أنْ يُؤمر صلى الله عليه وسلم بالقراءة التي تعني تتبع الحروف المكتوبة في الكتب والصحف.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم، برواية قالون عن نافع.
1. الأدب وخطاب النقد، د. عبدالسلام المسدي، دار الكتب الوطنية بنغازي – ليبيا، ط 1، 2004.
2. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس الفاسي، تحقيق: أحمد عبدالله القُرشي، الناشر د. حسن عباس زكي، القاهرة (بدون ط) 1419 هـ.
3. تاج العروس، الزبيدي، دار الهداية (بدون ط ت).
4. تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض السعودية، ط 1، 1997.
5. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1946.
6. تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث بيروت، ط 1، 1423 هـ.
7. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي، نهضة مصر القاهرة (بدون ط. ت).
8. الدراسات الأدبية، النظرية والتطبيق ((نصوص قرآنية))، عبدالسلام أحمد الراغب، دار القلم العربي، سوريا، ط 1، 2005.
9. دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1980.
10. الرغبة والرهبة في الشعر الجاهلي، معجمًا ودراسة، د. علي عبدالرحمن الفيتوري، أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراة، جامعة محمد الخامس المغرب، 2010 (مخطوط).
11. زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق: محمد حجي، د. محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء ط 1، 1981.
12. شرح ديوان الحماسة، يحيى التبريزي، دار القلم بيروت (بدون ط. ت) ج 2، ص 145.
13. شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار ابن حزم، بيروت لبنان، (بدون ط)، 2005.
14. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، عُني بجمعه وتصحيحه الشيخ أحمد الشنقيطي، دار الأندلس، بيروت لبنان، (بدون ط. ت).
15. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الآفاق بيروت (بدون ط. ت).
16. العمدة، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل بيروت، (بدون ط. ت).
17. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994.
18. اللغة، الكتاب، جوزيف فندريس، تعريب عبدالحميد الدواخلي، محمد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية (بدون ط)، 1950.
19. مشارق الأنوار، القاضي عياض، المكتبة العتيقة ودار التراث (بدون ط ت).
20. مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، ط 7، 1988.
21. معجم المترادفات والأضداد، إعداد سعد الضناوي، جوزيف مالك، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، ط 1، 2007.
22. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان، ط 2، 1984.
23. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر (بدون ط) 1979.
24. مقدّمة ابن خلدون، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 2، 1997.
25. الموشّى، الظرف والظرفاء، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي مصر – مطبعة الاعتماد، ط 2، 1953.
26. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي، جامعة الشارقة، ط 1، 2008.
27. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي النيسبوري، تحقيق: وتعليق الشيخ عادل عبدالموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون ط. ت).